الوحدة الثانية: كرونولوجيا نشأة وتطور علم الإنسان.

بعد أن تعرفنا على ماهية الأنثربولوجيا وأخذنا فكرة أولية وشاملة عنها كعلم يهتم بدراسة الإنسان من زوايا محددة وخاصة، ثم عرّجنا على الفروع الأساسية في الأنثروبولوجيا وعلاقتها مع العلوم الأخرى، جاء الدور في هذا المحور للإبحار بين صفحات التاريخ، لنأخذكم في رحلة تمتد إلى غاية العصور القديمة لنتعرف مع بعض على الجذور التاريخية لهذا العلم، الذي لم يأت هكذا صدفة وإنما كان له امتداد وسياق تاريخي كان له الأثر في تبلوره واستقلاله كعلم قائم بذاته له موضوعاته ومناهجه الخاصة التي تتلاقى مع بعض العلوم الأخرى وتتفرد في بضعها الآخر.

وكما سبق الإشارة إليه فإن الأنثروبولوجيا تعتبر كعلم حديث نسبيا مقارنة حيث لم يأخذ استقلاله الأكاديمي إلا في القرن التاسع عشر بعد أن استقل عن الفلسفة الاجتماعية، ولكن هذا لا ينفي وجود جذور لهذا العلم، وهذا ما سنحاول التعرف عليه في ثنايا هذه المحاضرة.

أولا- الأنثروبولوجيا العفوية أو التطبيقات الأنثروبولوجية قبل ظهور الأنثروبولوجيا كعلم مستقل:

رغم أن الأنثروبولوجيا علم حديث إلا أن الفكر الأنثروبولوجي قديم قدم الإنسان ذاته، فالمتأمل في كتابات العديد من الفلاسفة والرحالة والمؤرخين في العصور القديمة والحديثة التي تسبق ظهور الأنثروبولوجيا كعلم قائم بذاته، يجد بعض ملامح الأنثروبولوجيا في هذه الكتابات، التي اهتمت ببعض المواضيع التي يمكن اعتبارها مركز اهتمام هذا العلم، وتميزت ببعض الخصائص التي تتشابه إلى حد كبير مع الأنثروبولوجيا، على الرغم من تميزها بالطابع العفوي والوصفي إلا أنها مثلت الجذور والامتدادات التاريخية لهذا العلم والإرهاصات الأولى التي مهدت لتشكله فيما بعد، وساهمت بشكل كبير في بلورته وتطويره إلى غاية استقلاله من حيث الموضوع والمنهج والأساليب؛ وفيما يلي سنحاول تقديم لمحة عن الفكر الأنثروبولوجي عبر العصور والحضارات المتعاقبة.

1/ الفكر الأنثربولوجي في العصور القديمة: (بواكير الفكر الأنثروبولوجي)

1-1) الحضارة المصرية القديمة:

يرى "مودوي" في عرضه لتاريخ الإثنوغرافيا أن أقدم رحلة على الإطلاق هي تلك التي قام بها المصريون عام 1493 قبل الميلاد، نحو الجنوب عبر نهر النيل بأسطول مكون من خمسة مراكب، وعلى متن كل مركب واحد وثلاثون فردا، بهدف تسويق البضائع المتمثلة في البخور والعطور، لكن هذه الرحلة أفضت إلى اتصال المصريين بأقزام إفريقيا وإقامة علاقات معهم، وقد بدا ذلك من خلال تصوير استقبال ملك وملكة بلاد بونت لمبعوثي مصر على بعض النقوش والآثار في معبد الدير البحري، كما أوضحت النقوش كذلك بعض التفاصيل الجسمية لتلك الشعوب، حيث تُظهر اتصاف أهل تلك المملكة بالسمنة المفرطة. ويمكن اعتبار هذه النقوش بمثابة الكتابات الوصفية التي

تصور الصفات الجسمية، وتظهر الاختلاف والتمايز بين الخصائص الفيسيولوجية للبشر، والتي تعد من أهم المواضيع في علم الإنسان خاصة في الأنثروبولوجيا الفيزيقية كما أسلفنا ذكره في المحاضرات السابقة.

صور موجودة في معبد الدير البحري تصوِّر رحلة الفراعنة إلى بلاد بونت

2-1) الحضارة الإغريقية (اليونانية):

تسجل الشواهد جذور المادة الوصفية لشعوب المجتمعات القديمة في كتابات عدد من الكتاب الإغريق، أمثال الشاعر **هوميروس** Homer الذي عاش خلال القرن التاسع أو الثامن قبل الميلاد، وصاحب ملحمتي **الإلياذة والأوديسة**، كما يعتبر المؤرخ اليوناني **هيرودوتس** (أو **هيرودوت** كما يسميه البعض) الذي عاش خلال القرن الخامس قبل الميلاد "**أبو التاريخ**" وهنا من يسميه أيضا "**أبو الأنثروبولوجيا**"*، حيث يراه الكثير من الباحثين أنه أول باحث أنثروبولوجي في التاريخ، فقد جمع مادة وصفية دقيقة عن عدد كبير من الشعوب غير اليونانية في كتابه المعنون بـ "**التواريخ**"، حيث تناول تقاليدهم وعاداتهم وملامحهم الجسمية وأصولهم السلالية، واستطاع طرح فكرة وجود تنوع بين الشعوب من ناحية العادات واللغة والسلالة والدين، حيث قدّم المؤرخ اليوناني في تسعة فصول من كتابه معلومات مفصلة عن حوالي **خمسين شعبًا** احتك بهم من خلال رحلاته وقراءاته، كما وصف بشكل دقيق الحرب التي دارت بين الفرس والإغريق إبان القرن السادس قبل الميلاد وصفًا دقيقًا، فقد قدّم وصفًا شاملًا لمصر ووصفها بقوله "مصر هِبَة النيل"، واعتبر أن نهر النيل له طبيعة خاصة تختلف عن باقي الأنهار لذلك اختلف المصريون سائر الشعوب في عاداتهم وسننهم، ومن بين

---

* الرائج بين المصادر العلمية هو تسمية أبو التاريخ لكن بعض الباحثين في الأنثروبولوجيا يطلقون أيضا عليه تسمية أبو الأنثروبولوجيا، وهناك من المؤرخين من يسميه أبو الأكاذيب حيث تم اتهامه بتزوير الحقائق التاريخية. وعلى الطالب البحث في الموضوع أكثر للتعمق في فهم أصل وصحة هذه التسميات.

الشواهد لوصفه الاختلافات في العادات والتقاليد بين الشعوب المختلفة، ما جاء في قوله :"**وفي غير مصر يطلق كهنة الآلهة شعورهم، أما في مصر فيحلقونها، ويقضي العرف عند سائر الشعوب بأن يحلق أقارب المصاب رؤوسهم أثناء الحداد، ولكن المصريين إذا نزلت بساحتهم محنة الموت يطلقون شعر الرأس واللحية**"؛ **ويواصل وصفه قائلا "يسكن سائر الناس في عزلة عن الحيوانات، أما المصريون فيسكنون مع حيواناتهم، ويعيش الآخرون من الناس على القمح والشعير، ولكنه عار عظيم من أن يعيش عليه المصريون، إذ هم يصنعون خبزهم من الذرة (ألورا)، وهم يعجنون العجين بأقدامهم...، وأعضاء التناسل يتركها عامة الناس على طبيعتها أما المصريون ومن أخذ عنهم فيمارسون الختان**".

كما قدم المؤرخ اليوناني وصفًا دقيقًا عن قبائل البدو بليبيا، أشار فيه إلى أصولهم العرقية وطريقة عيشهم، ودوّن الكثير من المعلومات عن عاداتهم الصحية، هذا وقد جاء في كتابات هيرودوتس الكثير من الشواهد والمعلومات الوصفية عن كثير من الشعوب الأخرى التي لا يتسع المقام لذكرها مفصلة ولا موجزة، وخلاصة القول أن هيرودوتس استطاع في ذلك الوقت المبكر من الفكر الإنساني، أن يبرز فكرة وجود تنوع بين الشعوب من النواحي الثقافية واللغوية والسلالية والدينية، كما وصف لنا الكثير من المظاهر المتعددة للحياة المعيشية عند بعض الشعوب (البيئة، الملبس، المأكل، الطب، عادات الزواج والتقاليد المصاحبة لها)، كما كتب أبو الأنثروبولوجيا إن صح التعبير عن اقتباس الشعوب من بعضها البعض، فأشار إلى أن الإغريق قد أخذوا عن الليبيين الثياب والغناء والعربات، وهي الأفكار التي تبلورت فيما بعد لدى الكثير من الأنثروبولوجيين المعاصرين والتي سنتعرف عليها في المحاضرات اللاحقة من هذا الدرس.

حيث يرى الكثير من الأنثروبولوجيين أن منهج هيرودوتس في وصف ثقافات الشعوب والمقارنة بينهم، يحمل في طياته إلى جانب الوصف العام لمظاهر حياة الشعوب وبعض النظم الاجتماعية، بعض أساسيات المنهج الإثنوغرافي الذي يعتبر المنهج المميز للأنثروبولوجيا في الوقت الراهن، والذي سنتعرف عليه كذلك بشكل مفصل في المحاضرات اللاحقة، كما نجد بعض ملامح الفكر الأنثروبولوجي لدى فلاسفة اليونان أمثال **أفلاطون وأرسطو**، من خلال التساؤلات التأملية عن أصل الإنسان وإسهاماتهم في بلورة الفكر التطوري للكائنات الحية، وتوجيه التفكير نحو دراسة النظم الاجتماعية، وغيرها من المواضيع التي صارت فيما بعد حجز الزاوية في اهتمامات الأنثروبولوجيا المعاصرة، وعلى العموم يبقى للفكر الفلسفي اليوناني الفضل في توجيه العقل الإنساني نحو الفكر والتأمل في الوصول إلى الحقيقة.

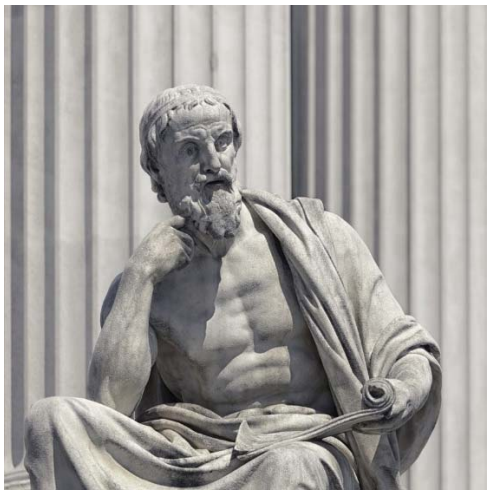

المؤرخ اليوناني هيرودت

3-1) الحضارة الرومانية:

تكاد تخلو الفترة الرومانية من إسهامات أصيلة في نشأة علم مستقل لدراسة الشعوب وثقافاتهم، ولعل من الإسهامات القليلة التي تم تداولها كبوادر لعلم الإنسان أشعار " **لوكروتيوس**" في القرن الأول قبل الميلاد، والتي ضمت بعض الأفكار الاجتماعية المهمة، حيث تناول الشاعر الروماني موضوعات عرضها في ستة أبواب رئيسية، ضم الباب السادس منها فكرة التطور والتقدم والعقد الاجتماعي ونشأة اللغة ونظامي الملكية والحكومة، إلى جانب مناقشة بعض القضايا الأخرى مثل العادات والتقاليد والفنون والأزياء والموسيقى. .الخ، واستطاع لوكروتيوس وفق نظرة تطورية أن يتصور تطور البشرية عبر مسارات متتالية من العصر الحجري إلى العصر البرونزي إلى الحديدي، مما جعل البعض يرى أن هذه الأفكار التطورية تمثل أصول لأفكار علماء الآثار ولما جاء به لويس مورغان أحد أعلام الأنثروبولوجيا في القرن التاسع عشر.

4-1) الصينيين القدماء:

وكما هو الحال عند الرومان، لا نجد لدى الصينيين إسهامات واضحة يمكن اعتبارها بوادر للأنثروبولوجيا، ماعدا اهتمام فلاسفتهم بالأخلاق والشؤون العامة للمجتمع، رغم الاحتكاك في مجال التجارة وتبادل السلع مع شعوب أخرى، إلا أن هذا الاحتكاك لم ينتج عنه تأثيرات ثقافية عميقة، فقد كان الصينيون يشعرون بنوع من "الاكتفاء الثقافي"، مما جعلهم لا يعبؤون بالثقافات خارج حدودهم الجغرافية، ولم يروا وجود داعي للاحتكاك بباقي الثقافات أو بحثهم عن الاختلافات الموجودة فيها، (كانوا لا يرون وجود أية حضارة أو فضيلة خارج جنسهم، وهناك من يذهب إلى أنهم قاموا ببناء سور الصين العظيم لكي يمنعوا الاحتكاك والاختلاط بباقي الشعوب والثقافات). ورغم ذلك لم يخلو تاريخهم من بعض الكتابات الوصفية لعادات الجماعات البربرية والتي كانت تتسم بالازدراء والاحتقار.

لقد اتسمت نظرة الصينيين بالتعالي والعنصرية شأنهم شأن بقية مراكز الحضارة عبر التاريخ كاليونان والرومان وغيرهم، وهذه النظرة يؤكدها حسين مؤنس في كتابه " الحضارة" حين يقول:

"اليونان كانوا يرون أنفسهم أفضل الأمم وأنقاها وأشرفها وبقية الخلق همج، والرومان جعلوا الروماني فوق غيره بحكم القانون، حتى صاروا إذا أرادوا أن يرفعوا من قدر إنسان أو جنس أصدرت لهم الدولة قرارا بمنحه الجنسية الرومانية، أما أهل الصين فكانوا يؤمنون أنهم أفضل الخلق، وأنه لا وجود لأي حضارة أو قضية خارج جنسهم، بل كانوا يرون أنهم لا يحتاجون إلى غيرهم في شيء، وليؤكد ملوكهم هذا المعنى أقاموا سور الصين العظيم حتى لا تتدنس أرضهم بأقدام أقوام آخرين".

خلاصة القول أن كتابات الفلاسفة والمؤرخين خلال هذه المرحلة (الحضارات القديمة ما قبل الميلاد) شكلت مادة وصفية يمكن الاعتماد عليها كمادة إثنوغرافية (ونخص بالذكر كتابات هيرودوت) يستفيد منها الأنثروبولوجيون في دراسة الثقافات والحضارات القديمة، أي أنها شكلت جذورًا تاريخية للأنثروبولوجيا، لكنها ليست ذات أهمية كبيرة في التأسيس للأنثروبولوجيا كعلم مستقل وقائم بذاته.

2- الفكر الأنثروبولوجي في العصور الوسطى:

يجمع معظم المؤرخين أن هذه العصور، تمتد من القرن الخامس إلى القرن الرابع عشر الميلادي، وقد اصطلح على تسميتها بالعصور الوسطى كونها ارتبطت بتدهور الحضارة الأوروبية، ارتداد الفكر إلى حقبة مظلمة من جهة، ولأنها من جهة وقعت بين عهدين هما: نهاية ازدهار الحضارات الأوربية القديمة (اليونانية والرومانية) وبداية عصر النهضة الأوربية والانطلاق إلى مجالات جديدة من استكشاف العوالم الأخرى، وإحياء التراث الفكري القديم، وإبداعات في الفنون والآداب المختلفة. في الوقت نفسه كانت فيه الحضارة العربية الإسلامية تزدهر، وتتّسع لتشمل مجالات العلوم المختلفة.

2-1) العصور الوسطى في أوروبا:

وتسمى أيضا عصور الظلام، تمتد منذ انهيار الإمبراطورية الرومانية سنة 476 م (القرن الخامس) إلى قبيل عصر النهضة في القرن الرابع عشر، ويذكر المؤرخون أنه في هذه العصور الوسطى (المظلمة) تدهور التفكير العقلاني، وأدينت أية أفكار تخالف التعاليم المسيحية، أو ما تقدمه الكنيسة من تفسيرات للكون والحياة الإنسانية، سواء في منشئها أو في مآلها. وانشغل فيها الأوروبيون بنشر النصرانية خارج حدود روما، من خلال الحروب الصليبية التي كانت تهدف إلى تخليص الأراضي المقدسة من يد المسلمين، تميزت بسيطرة الكنيسة والمؤسسات الدينية المرتبطة بها على اتجاه التفكير الاجتماعي، ولكن إلى جانب ذلك، كانت هناك أيضا مراكز أخرى وجهت منطلقات المعرفة، وحددت طبيعة الحضارة الغربية في تلك العصور، كبلاط الملوك مثلاً، الذي كان يضم في العادة، فئات من المثقفين كرجال الإدارة والسياسة والشعراء.

لكن على الرغم من ذلك كانت بعض الاستثناءات تمثلت مثلًا في التوسع في دراسة القانون (جامعة بولونيا بإيطاليا) ودراسة الفلسفة واللاهوت (جامعة باريس بفرنسا) مما كانت له آثار واضحة في الحياة الأوربية العامة (السياسية والاجتماعية والثقافية والدينية) ومهّد بالتالي للنهضة التي شهدتها أوروبا بعد هذه العصور.

على المستوى الجغرافي كانت إقطاعيات أوروبا تتوسط عددًا من الحضارات الأخرى، فمن جهة الشمال والغرب كانت تحدها محيطات وبحار مجهولة وممتدة، ومن جهة الشرق تواجدت الشعوب المتبربرة (مثل المغول أو التتار) التي كان يحّل معها الذعر أينما حلت وارتحلت، كانت تفصلها عنها سلسلة من الجبال والمرتفعات والأنهار، ومن جهة الجنوب نجد البحر المتوسط وما وراءه من شعوب لم يعرفوا عنها إلا القليل. فبدلًا من معرفة تلك الشعوب وعاداتها وتقاليدها وخصائصها، نظروا إليها نظرة مصبوغة بالصبغة الدينية الكنائسية والاستعلائية، من منطلق ضرورة تخليصها من الشرك والوثنية عن طريق الغزو والحروب. لكن رغم ذلك تميزت هذه المرحلة ببعض الكتابات عن تلك الشعوب، تميّزت في مجملها **بالوصف والتخيل** ولم تكن مبنية على المشاهدة المباشرة.

فقد ظهرت في هذه المرحلة محاولات عدة للكتابة عن بعض الشعوب، إلاّ أنها اتّسمت– غالبًا–بالوصف التخيلي، بعيدة عن المشاهدة المباشرة على أرض الواقع. مثال ذلك، ما قام به **الأسقف إسيدور Isidore** الذي عاش ما بين 636 –560 م حيث أعد في القرن السابع الميلادي موسوعة عن المعرفة، وأشار فيها إلى بعض تقاليد الشعوب المجاورة وعاداتهم، ولكن بطريقة وصفية عفوية، تتّسم بالسطحية والتحيز.

ومما ذكره، أن قرب الشعوب من أوروبا أو بعدها عنها، يحدد درجة تقدمها، فكلّما كانت المسافة بعيدة، كان الانحطاط والتدهور الحضاري مؤكّدًا لتلك الشعوب. ووصف الناس الذين يعيشون في أماكن نائية، بأنهم من سلالات غريبة الخلق، حيث تبدو وجوههم بلا أنوف. وقد ظلّت تلك المعلومات سائدة وشائعة حتى القرن الثالث عشر، حيث ظهرت موسوعة أخرى أعدها الفرنسي باتولو ماكوس، والتي حظيت بشعبية كبيرة، على الرغم من أنها لم تختلف كثيراً عن سابقتها في الاعتماد على الخيال.

كما نجد الكتابات التي شكّلت مادة إثنوغرافية عن الشعوب غير الأوروبية، على سبيل المثال مدونات الإيطالي **جون دي بلانكو كاربيني Carpini** في القرن الثالث عشر، الذي توجه إلى بلاد المغول (التتار) بتكليف من البابا لدراسة تقاليدهم وعاداتهم بهدف إنجاح عمليات التنصير أو التبشير، حيث قام بتقديم وصف دقيق لشعوب بلاد آسيا الوسطى والشرقية. ومن بين كتابات الرحالة المشهورة خلال هذه الفترة نجد رحلات **نيكولاي بولو polo** وابنه **مارك بولو** وأخيه **ماثيو بولو** (أخ نيكولاي)، تميزت بالطابع التجاري والاستكشافي. ولعبت دور سياسي كبير كهمزة وصل بين الشرق والغرب، لكنها اتسمت بعدم الاتساق والخلو من الترابط والبرهان.

فمن خلال ما سبق لا نجد كتابات كثيرة عن الشعوب الأخرى غير الأوروبية، وما وجد منها كان لا يخرج عن نطاق التفكير الكنائسي، حيث كان يُنظر إلى الفروق بين البشر في التكوين الجسدي أو الوضع الحضاري من خلال تقديم تفسيرات قائمة على التحيز العنصري والديني، وفق نظرية الارتداد الحضاري أو الانتكاس الحضاري*، حيث كانوا يرون أن بعض السلالات خاصة غير الأوروبية قد تدهورت من الحالة المثلى التي خلق الله الإنسان عليها إلى مستوى حضاري أدنى بسبب ما قاموا به من أفعال شرية وما يمارسونه من معتقدات شاذة وغريبة. أما الشعوب والحضارة المسيحية فقد كانت تمثل حسبهم أرقى أنواع الحياة الإنسانية وأكثرها تقدمًا ورقيًا.

2-2) عصر الازدهار الحضاري عند العرب والمسلمين:

وتمتد من منتصف القرن السابع الميلادي، وحتى نهاية القرن الرابع عشر تقريباً. حيث بدأ الإسلام في الانتشار، وبدأت معه بوادر الحضارة العربية الإسلامية آنذاك بالتكوين والازدهار. وقدّ تميّز المسلمون والعرب خلال هذه المرحلة في العديد من المجالات أبرزها: الآداب والعلوم الطبيعية والأخلاق والفلسفة والمنطق، كما كانت لهم تأثيرات خاصة في الحياة السياسية والاجتماعية والعلاقات الدولية.

وقد اقتضت الأوضاع الجديدة التي أحدثتها الفتوحات العربية الإسلامية، الاهتمام بدراسة أحوال الناس في البلاد المفتوحة وسبل إدارتها، حيث أصبح ذلك من ضرورات التنظيم والحكم. وبعد استقرار الدولة الإسلامية، ازدادت تنقلات الحجاج والتجار وأهل العلم والرحالة، واهتم الكثير منهم بتدوين ما يرونه يشاهدونه ويسمعونه حول الأقاليم والمناطق الشعوب التي احتكوا بها، كما برزت الجغرافيا العربية التي بلغت ذروتها في القرن التاسع ميلادي، ولذلك، برز العرب في وضع المعاجم الجغرافية، كمعجم "**البلدان**" **لياقوت الحموي**. وكذلك إعداد الموسوعات الكبيرة التي بلغت ذروتها في القرن الثامن الهجري (الرابع عشر ميلادي) مثل "**مسالك الأمصار**" **لإبن فضل االله العمري**، و" **نهاية الأرب في فنون العرب**" **للنويري**. وإلى جانب اهتمام هذه الكتب الموسوعية بشؤون العمران، فقد تميزت مادتها بالاعتماد على **المشاهدة والخبرة الشخصية**، وهذا ما جعلها مادة خصبة من الناحية الإثنوغرافية في دراسة الشعوب والثقافات الإنسانية.

وقد برزت العديد من كتابات الرحالة خلال هذه الفترة، منهم من كتب عن الكثير من المناطق والأقاليم كما أسلفنا ذكره، وهناك من تخصص في وصف إقليم واحد مثل **البيروني** الذي وضع كتاباً عن الهند بعنوان "**تحرير ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة**"، وصف فيه المجتمع الهندي بما فيه من نظم دينية واجتماعية وأنماط ثقافية، واهتم أيضاً بمقارنة تلك النظم والسلوكيات

---

* وقد جاءت النظرية التطورية التي سنتعرف عليها في المحاضرات اللاحقة كردة فعل عن نظرية الانتكاس الحضاري وفق رؤية معاكسة تمامًا لرؤية الانتكاس بحيث كانت ترى أن الحضارات تتطور دائما من الحالة الأدنى إلى الحالة الأرقى.

الثقافية، بمثيلاتها عند اليونان والعرب والفرس. وأبرز البيروني في هذا الكتاب، حقيقة أنّ الدين يؤدي الدور الرئيس في تكبيل الحياة الهندية، وتوجيه سلوك الأفراد والجماعات، وصياغة القيم والمعتقدات. كما قام البيروني بدراسة اللغة الهندية ومقارنتها باللغة العربية.

كما كانت لرحلات الرحالة المشهور **ابن بطوطة** وكتاباته خصائص ذات طابع أنثروبولوجي، في كتابه "**تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار**" المعروف باسم **رحلة ابن بطوطة**، برزت في اهتمامه بالناس ووصف حياتهم اليومية، وطابع شخصياتهم وأنماط سلوكاتهم وقيمهم وتقاليدهم؛ فمما كتبه في استحسان أفعال أهل السودان: "**فمن أفعالهم قلّة الظلم، فهم أبعد الناس عنه وسلطانهم لا يسامح أحداً في شيء منه. ومنها شمول الأمن في بلادهم، فلا يخاف المسافر فيها ولا المقيم من سارق ولا غاصب. ومنها عدم تعرضهم لمال من يموت في بلادهم من البيضان (البيض والأجانب) ولو كان القناطير المقنطرة. وإنما يتركونه بيد ثقة من البيضان، حتى يأخذه مستحقّه**". كما أنه وصف أهل جزر ذيبة المهل (جزر المالديف حاليًا)، حين أقام فيها لمدة عام ونصف واشتغل فيها بالقضاء وتزوج امرأتين من نسائها، حيث كتب عنهم قائلا "**أنهم أهل نظافة وتنزه عن الأقذار، وأكثرهم يغتسل مرتين في اليوم تنظفا لشدة الحر بها وكثر العرق، ويكثرون من الأدهان العطرية**" وفي وصف نسائها كتب: "**ونساؤها لا يغطون رؤوسهن ولا سلطانتهم تغطي رأسها، ويمشطن شعورهن ويجمعنها إلى جهة واحدة، ولا يلبس أكثرهن إلا فوطة واحدة تسترها من السرة إلى الأسفل، وسائر أجسادهن مكشوفة**"، كما أنه كتب عن بساطة مهر النساء في الزواج، وعن حسن معاشرة النساء فيها بحيث تحرص الزوجة على خدمة زوجها وعادات امتناع الزوجة عن الأكل مع زوجها من باب الحياء والاحترام الشديد.

ويبرز كذلك ضمن الرحالة العرب **علي بن حسين المسعودي** (الذي أطلق عليه لقب شيخ الرحالة العرب) في مؤلفه الشهير"**مروج الذهب ومعادن الجوهر**"، كتب فيه عن وصف الخليقة وعرضه للأديان والمذاهب والعادات وتأثير البيئة على الإنسان من الناحية الجسمانية والسلوكية والعقلية. وكذلك الرحالة **ابن فضلان** الذي أرسله الخليفة العباسي لبلاد البغار، فكتب عن عادات البغار والروس الذين كانوا يتاجرون معهم، ومما كتبه مثلا عن تعامل الروس مع المرضى: "**إذا مرض منهم أحد نصبوا له خيمة بعيدة عنهم وطرحوه فيها، وجعلوا له شيئا من الخبز والماء، ولا يقربونه ولا يكلمونه، بل لا يتعاهدونه (أي لا يزورونه) في كل أيام مرضه لا سيما إذا كان ضعيفًا أو مملوكًا، فإن برئ وشفي قام ورجع إليهم، وإن مات أحرقوه، فإن كان مملوكًا تركوه على حاله تأكله الكلاب وجوارح الطير**". إضافة إلى الرحالة **ابن بطلان** الذي وصف الجوانب الاجتماعية والثقافية للجماعات التي عايشها أثناء رحلته من بغداد إلى الشام، مثل السكان النصارى البيزنطيين وعاداتهم وأماكن العبادة عندهم. دون أن ننسى الرحالة **ناصر خسرو** (وهو فارسي الأصل والنشأة والثقافة) في رحلته المعروفة باسم "**سفر نامة**"، قدّم من خلالها وصفًا دقيقًا ومعلومات غنية عن مدن

الشام وحياة الناس بها وتقاليدهم قبل مجيء الصليبيين.

في أواخر الحضارة الإسلامية برز أحد أبرز المفكرين الذي يزال إسمه خالدًا إلى غاية اليوم، ألا وهو العلامة **عبد الرحمن بن خلدون** وكتابه الموسوعي "**العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر، ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر**" والمعروف باسم "**المقدمة**"، فقد نال شهرة كبيرة وواسعة بسبب مقدمته الرئيسة وعنوانها "في العمران وذكر ما يعرض فيه من العوارض الذاتية من الملك والسلطان، والكسب والمعاش والمصانع والعلوم، وما لذلك من العلل والأسباب"، وتعتبر هذه المقدمة عملاً أصيلاً في تسجيل الحياة الاجتماعية لشعوب شمال أفريقيا، ولا سيما العادات والتقاليد والعلاقات الاجتماعية، إلى جانب بعض المحاولات النظرية لتفسير كل ما رآه من أنظمة اجتماعية مختلفة. وقد شكلت موضوعات هذه المقدمة –فيما بعد– اهتماماً رئيسياً في الدراسات الأنثروبولوجية.

ومن أهم الموضوعات التي تناولها ابن خلدون في مقدمته، والتي لها صلة باهتمامات الأنثروبولوجيا، هي تلك العلاقة بين البيئة الجغرافية والظواهر الاجتماعية. فقد رد ابن خلدون– استناداً إلى تلك الدعامة – اختلاف البشر في ألوانهم وأمزجتهم النفسية وصفاتهم الجسمية والخلَقية، إلى البيئة الجغرافية التي اعتبرها أيضاً عاملاً هاماً في تحديد المستوى الحضاري للمجتمعات الإنسانية. كما تناول ابن خلدون في مقدمته أيضاً، مسألة قيام الدول وتطورها وأحوالها، وبلور نظرية "دورة العمران" بين البداوة والحضارة على أساس المماثلة بين حياة الجماعة البشرية وحياة الكائن الحي.

وقد سيطرت هذه الفكرة على أذهان علماء الاجتماع في الشرق والغرب –على حد سواء – في العصور الوسطى، حيث اعتبر ابن خلدون أن التطوّر هو سُنَّة الحياة الاجتماعية، وهو الأساس الذي تستند إليه دراسة الظواهر الاجتماعية. يقول في ذلك: "**إن أحوال العالم والأمم وعوائدهم ونحلهم، لا تدوم على وتيرة واحدة ومنهاج مستقر، وانّما هو اختلاف على الأيام والأزمنة وانتقال من حال إلى حال. وكما يكون ذلك في الأشخاص والأوقات والأمصار، فكذلك يقع في الآفاق والأقطار والأزمنة والدول**". فعمر الدول عند ابن خلدون كعمر الكائن البشري، تبدأ بالولادة وتنمو إلى الشباب والنضج والكمال، ثم تكبر وتهرم وتتلاشى إلى الزوال.

لقد أرسى ابن خلدون الأسس المنهجية لدراسة المجتمعات البشرية، ودورة الحضارات التي تمر بها، فكان بذلك، أسبق من علماء الاجتماع في أوروبا. ولذلك، يرى بعض الكتّاب والمؤرخين، أن ابن خلدون يعتبر المؤسس الحقيقي لعلم الاجتماع، بينما يرى بعضهم الآخر، ولا سيما علماء الأنثروبولوجيا البريطانيون، في مقدمة ابن خلدون بعضاً من موضوعات الأنثروبولوجيا الاجتماعية ومناهجها. وفي أمريكا، أشار **جون هونجيمان** أيضاً في كتابه "**تاريخ الفكر الأنثروبولوجي**" إلى أن ابن خلدون تناول بعض الأفكار ذات الصلة بنظرية **مارفين هاريس** عن "**المادية الثقافية**"،

ونجد أن هاريس ذاته، يذكر أن ابن خلدون ومن قبله الإدريسي، قدما أفكاراً ومواد ساعدت في بلورة **نظرية الحتمية الجغرافية**، التي سادت إبّان القرن الثامن عشر. فلم يقدم ابن خلدون معلومات وصفية إثنوجرافية عن مختلف الشعوب التي اختلط بها بحكم عيشه في الكثير من المناطق والدول، لكنه قدم تفسيرات نظرية وفق قواعد وأسس منهجية كان له الفضل في تأسيسها وتطويرها.

واستناداً إلى ما تقدم ضمن بواكير الفكر الأنثروبولوجي منذ القدم، يمكن القول أنّ والمفكرين العرب (بالأخص هيرودوتس وابن خلدون) أسهموا بفاعلية في معالجة كثير من الظواهر الاجتماعية التي يمكن أن تدخل في الاهتمامات الأنثروبولوجية، ولا سيما التنوع الثقافي (الحضاري) بين الشعوب، سواء بدراسة خصائص ثقافة أو حضارة بذاتها، أو بمقارنتها مع ثقافة أخرى، ومسألة النسبية الثقافية التي صارت فيما بعد أساسًا لمعالجة ودراسة الثقافات الإنسانية لدى الأنثروبولوجيين المعاصرين. ولكن على الرغم من أهمية هذه الأعمال باعتبارها مصادر هامة للمادة الإثنوغرافية التي درست أسلوب الحياة في في تلك الحقبة، إلا أن الأنثروبولوجيا التي تبلورت في أواخر القرن التاسع عشر كعلم جديد معترف به، لم تكن ذات صلة تذكر بهذه الدراسات، ولا بغيرها من الدراسات اليونانية والرومانية القديمة. فقد كانت هذه الدراسات محصورة في جمع المادة الإثنوجرافية الوصفية فقط عن شعوب المجتمعات القديمة (باستثناء عمل ابن خلدون الذي يحمل المادة الإثنوجرافية والنظرية معًا)، في حين أن المحاولات الجدية من أجل التنظير بطرق منهجية سليمة لم تبلغ ذروتها إلا خلال عصر النهضة في أوروبا.

3- الأنثروبولوجيا في عصر النهضة الأوروبية: البدايات النظرية لعلم الإنسان.

يتّفق المؤرخون على أن عصر النهضة في أوربا، بدأ في نهاية القرن الرابع عشر الميلادي، حيث شرع الأوروبيون بعملية دراسة انتقائية للعلوم والمعارف الإغريقية والعربية، مترافقة بحركة ريادية نشطة للاستكشافات الجغرافية. وتبع ذلك الانتقال من المنهج الفلسفي إلى المنهج العلمي التجريبي، في دراسة الظواهر الطبيعية والاجتماعية، والذي تبلور وتكامل في القرن السابع عشر. إنّ هذه التغيّرات مجتمعة أدت إلى ترسيخ عصر النهضة، وأسهمت بالتالي في التمهيد لبلورة الأنثروبولوجيا في نهاية القرن التاسع عشر، كعلم يدرس تطور الحضارة البشرية في إطارها العام وعبر التاريخ الإنساني. الأمر الذي استلزم توافر الموضوعات الوصفية عن ثقافات الشعوب وحضاراتها، في أوروبا وخارجها، من أجل المقارنات، والتعرف إلى أساليب حياة هذه الشعوب وترتيبها بحسب مراحل تطورية معينة، بحيث يضع ذلك أساساً لنشأة علم الأنثروبولوجيا.

لعلّ أهم رحلة استكشافية مشهورة أثّرت في علم الأنثروبولوجيا، ما قام به **كريستوف كولومبوس** إلى القارة الأمريكية ما بين 1492-1506 حيث زخرت مذكراته عن مشاهداته واحتكاكاته بسكان العالم الجديد، بالكثير من المعلومات والمعارف عن أساليب حياة تلك الشعوب

وعاداتها وتقاليدها، اتّسمت بالموضوعية نتيجة للمشاهدة المباشر، مع محاولته معرفة الأسباب الكامنة وراء ما شاهده أو سمع عنه من عادات وتقاليد أو طقوس وممارسات يومية. ومما قاله في وصف سكان جزر الكاريبيان في المحيط الأطلسي: "**إن أهل تلك الجزر كلّهم عراة تماماً، الرجال منهم والنساء، كما ولدتهم أمهاتهم. ومع ذلك، فثمة بعض النساء اللواتي يغطين عوراتهن بورق الشجر، أو قطعة من نسيج الألياف تصنع لهذا الغرض، ليست لديهم أسلحة ومواد من الحديد أوّ الصلب وهم لا يصلحون لاستخدامها على أية حال. ولا يرجع السبب في ذلك إلى ضعف أجسادهم، وإنما إلى كونهم خجلون ومسالمون بشكل يثير الإعجاب..**"؛ وكتب في وصفه لسكان أمريكا الأصليين "**إنهم يتمتّعون بحسن الخلق والخُلق، وقوة البنية الجسدية. كما أنّهم يشعرون بحرية التصرف فيما يمتلكون، إلى حدّ أنهم لا يترددون في إعطاء من يقصدهم أياً من ممتلكاتهم، علاوة على أنهم يتقاسمون ما عندهم برضى وسرور**". كما وصف سكان الجزر التي اكتشفها في رسالة إلى الملك الإسباني بقوله: "**أنهم ليسوا عمالقة أو ممسوخي الخلقة وإنما هم متوحشون فقط (أي غير متحضرين على النحو الذي كان عليه الإنسان الأوروبي)**".

وهكذا كان لرحلات كولومبس واكتشافه العالم الجديد (أمريكا) عام 1492 وما تلتها من رحلات استكشافية لكثير من الرحالة، أثرها الكبير في إدخال أوروبا حقبة جديدة، وفي تغيير النظرة إلى الإنسان عامة، والإنسان الأوروبي خاصة، مما أثّر بالتالي في الفكر الأنثروبولوجي. وذلك، لأن هذه الاكتشافات الجغرافية الاجتماعية وما تبعها من معرفة سكان هذه الأرض بميزاتهم وأنماط حياتهم، أظهرت بوضوح تنوع الجنس البشري، وأثارت كثيراً من المسائل والدراسات حول قضايا النشوء والتطور عند الكائنات البشرية. وأسهمت في نمو الفضول لدى الأوروبيين لاكتشاف هذه الشعوب الجديدة التي لم تكن معروفة عندهم، مما دفع إلى إثارة التساؤل: **هل هذه الشعوب تنتمي إلى نفس النوع الذي ينتمي إليه الإنسان الغربي؟ وهل تمثل المرحلة السابقة لتطور الإنسان والمجتمعات والحضارات الغربية؟ وهل تمثل حالة مماثلة لتلك التي كان يعيشها أسلافنا قبل ظهور الحضارة (قبل ظور الكتابة والقراءة)؟** وظهرت تبعًا لذلك الكثير من النظريات التي تحاول الإجابة على هذه التساؤلات (نظريات الأصول الواحد، نظريات الأصول المتعددة، نظريات الإنسان السابق لآدم...).

لقد تميز عصر النهضة الأوربية، بظاهرة كان لها تأثير في توليد نظريات جديدة عن العالم والإنسان، وهي أنّ المفكرين اتفقوا، على الرغم من تباين وجهات نظرهم، على مناهضة فلسفة العصور الوسطى اللاهوتية، التي أعاقت فضول العقل الإنساني إلى معرفة أصول الأشياء ومصادرها، وتكوين الطبيعة وقوانينها، وصفات الإنسان الجسدية والعقلية والأخلاقية. وظهر نتيجة لهذا الموقف الجديد اتّجاه لدراسة الإنسان، عرف بالمذهب الإنساني (العلمي) اقتضى دراسة الماضي من أجل فهم الحاضر، حيث اتّجهت دراسة الطبيعة الإنسانية وفهم ماهيتها وأبعادها

وفق المراحل التاريخية التطورية للإنسان.

وقد تبلور هذا الاتّجاه (المذهب) العلمي في الدراسات التجريبية والرياضية، التي ظهرت في أعمال بعض علماء القرن السابع عشر، من أمثال: فرانسيس بيكون ورينيه ديكارت واسحاق نيوتن وغيرهم، حيث أصبحت النظرة الجديدة للإنسان عل أنه ظاهرة طبيعية، ويمكن دراسته من خلال البحث العلمي والمنهج التجريبي، ومعرفة القوانين التي تحكم مسيرة التطور الإنساني والتقدم الاجتماعي. وهذا ما أسهم في تشكيل المنطلقات النظرية للفكر الاجتماعي، وأدى بصورة تدريجية إلى بلورة البدايات النظرية للأنثروبولوجيا، خلال عصر التنوير.

أما بالنسبة للدراسات الاثنوجرافية (دراسة أسلوب الحياة والعادات والتقاليد) والدراسات الإثنولوجية (دراسة مقارنة لأساليب الحياة للوصول إلى نظرية النظم الاجتماعية)، والدراسات الأنثروبولوجية الاجتماعية، فثمةّ أعمال كثيرة قام بها العديد من العلماء ؛ وقد تكون محاولة الرحالة الإسباني **جوزيه آكوستا** في القرن السادس عشر، لربط ملاحظاته الشخصية عن السكان الأصليين في العالم الجديد ببعض الأفكار النظرية، المحاولة الأولى لتدوين المادة الاثنوجرافية والتنظير بشأنها، فقد افترض آكوستا أن الهنود الحمر كانوا قد نزحوا أصلاً من آسيا إلى أمريكا، وبذلك فسر اختلاف حضاراتهم عن تلك التي كانت سائدة في أوروبا حينذاك؛ وقدم آكوستا أيضاً افتراضاً آخر حول تطور الحضارة الإنسانية عبر مراحل معينة، معتمداً في تصنيفه على أساس معرفة الشعوب القراءة والكتابة. وقد وقفت أوروبا في أعلى الترتيب، وأتت بعدها الصين في المرتبة الثانية لمعرفتها الكتابة، بينما جاءت المكسيك في مرتبة أدنى من ذلك ..، وصنفت المجتمعات الأخرى بدرجات متباينة في المواقع الأدنى من هذا الترتيب. وربما شكل هذا التصنيف أساساً استند إليه الأنثروبولوجيون– فيما بعد–للتمييز بين المجتمعات.

وظهر إلى جانب آكوستا الإسباني في الدراسة الأثنوجرافية عن الشعوب البدائية، الفيلسوف الاجتماعي الفرنسي **ميشيل دي مونتاني** الذي عاش ما بين 1532–1592، وأجرى مقابلات مع مجموعات من السكان الأصليين في أمريكا المكتشفة، والذين أحضرهم بعض المكتشفين إلى أوروبا، وبعد أن جمع منهم المعلومات عن العادات والتقاليد السائدة في موطنهم الأصلي، خرج بالمقولة التالية: "**إنه لكي يفهم العالم فهماً جيدًا، لا بد من دراسة التنوع الحضاري للمجتمعات البشرية واستقصاء أسباب هذا التنوع**"، ويكون بذلك قد طرح فكرة (النسبية الأخلاقية)، ومما قاله في هذا الإطار ما كتبه في مقاله الشهير عن "أكلة لحوم البشر" وجاء فيه: "**يبدو أن ليس لدينا أي معيار للحقيقة والصواب، إلاّ في إطار ما نجده سائداً من آراء وعادات على الأرض التي نعيش عليها (أوروبا)، حيث نعتقد بوجود أكمل الديانات، وأكثر الطرائق فاعلية في الحصول على الأشياء. إن هؤلاء الناس (أكلة لحوم البشر) فطريون طبيعيون، مثل الفاكهة البرية، فقد بقوا على حالهم البسيطة، كما شكّلتهم الطبيعة بطريقتها الخاصة، وتحكمت**

فيهم قوانينها وسيرتهم". ومن هذه الرؤية، لاقى كتابه الشهير "المقالات" الصادر عام 1579، اهتماماً كبيراً لدى مؤرخي الفكر الأوروبي عامة، والفكر الفرنسي خاصة.

كما برزت الكثير من كتابات الرحالة والمستكشفين التي زادت اهتمام وفضول وشغف الأوروبيين باكتشاف هذا الإنسان الغريب الذي أصبح شغلهم الشاغل، وقد ساعد في زيادة هذا الشغف اكتشاف الطباعة في ألمانيا سنة 1457، حيث تم نشر كتابات الرحالة وشيوع ما بها من معلومات بين أكبر عدد ممكن من المهتمين، كما شاعت الكتب المصورة عن الرحلات ولاقت رواجًا كبيرًا بين القراء والمهتمين، مما وفّر مادة إثنوغرافية ضخمة عن مختلف الثقافات والحضارات، رغم ما اتصفت به من أحكام قيمية وتحيّز ثقافي واستعلاء عنصري. نذكر منها مثلا ما كتبه رسام الخرائط الإيطالي **فيسبونشي أميرجو** في وصفه لسكان أمريكا الأصليين، حيث وصفهم على أنهم انعكاسات مشوهة أو مقلوبة عن الأوروبيين، وبأنهم ملحدون ومشوشون وعراة وليس لديهم سلطة أو قوانين وبأنهم أيضا أكلة لحوم البشر. فقد كانت أغلب الكتابات تحمل ملامح لتشويه حقيقة الناس الذين تكتب عنهم وتعبّر عن خلفيات الكتاب بدلا عن حقيقة الشعوب الموصوفة.

فقد اعتمدت الأصول الأولى للأنثروبولوجيا على المستويين النظري والمنهجي في دراسة ما خلفته الشعوب القديمة من حكايات شعبية وأساطير، معتمدة على الوصف والتحليل بقصد استنباط أنماط من الإنجازات الحضارية الهامة، والتي تشكل منعطفات في تاريخ تطور الإنسان منذ وجوده على سطح الأرض وصراعاته ومغامارته بحثًا عن الاستقرار. حيث بدأت منذ القرن 15 تتراكم كميات كبيرة من المعلومات الوصفية تجمعت على يد الرحالة والمبشرين والجنود، خلّفت تجميعًا ضخمًا لمادة إثنوغرافية امتزج فيها الوصف بالتراث الشعبي وحكايات العجائز والمسنين، حيث دوّن المؤرخون خبراتهم الشخصية والقصص والأساطير التي صادفوها أو سمعوها خلال رحلاتهم، لذلك فقد تميزت هذه الكتابات بالذاتية والنظرة العنصرية والدونية للشعوب والثقافات الأخرى، فقد كان معظم الرحالة ينظرون إلى الشعوب الأخرى من خلال ميولهم الثقافية المتعصبة.

وفي القرن 16 بدأ مصطلح الأنثروبولوجيا يبرز تدريجيًا، والبداية كانت بظهوره كعنوان لكتاب للمفكر **هانت** سنة 1501 تناول فيه خصائص الجسم التشريحية، كما ظهر مصطلح الأنثروبولوجيا في اللغة الإنجليزية عام 1655 في كتاب يبحث في الطبيعة البشرية، ثم أخذ المصطلح ينتشر تدريجيا ويكتسب أبعاده العلمية الواضحة ببحثه في الأصول الاجتماعية والحضارية والثقافية والبيولوجية المكونة لسلوك الإنسان وعاداته وتقاليده خلال القرون اللاحقة.

عموما فقد شكل كل من الاستكشافات الجغرافية وبروز الاتجاه العلمي والمذهب الإنساني نقلة نوعية، أسهمت في أبراز مجالات واهتمامات جديدة في دراسة الإنسان الأوروبي وغيره، كما ساهمت بصورة تدريجية في بلوة البدايات النظرية للأنثروبولوجيا خلال عصر التنوير.

4- الأنثروبولوجيا في القرن الثامن عشر (عصر التنوير):

ويأتي القرن الثامن عشر، الذي عُرِف في أوروبا بعصر التنوير ليحمل معه الكثير من التغييرات على مختلف الأصعدة والتي ألقت بظلالها على مختلف شؤون الحياة وعلى العلوم كذلك، فعلى المستوى الفكري والعلمي برزت حركة التنوير (فلسفة التنوير)، فقد اعتُبِرَ القرن الثامن عشر ريعان العلم والفلسفة في أوروبا، وسقطت تبعا لذلك هيمنة الكنيسة والتفكير الديني، وأصبح الفرد الحر معيارًا لكل شيء، وظهرت النوادي والصالونات العامة لمناقشة الفن والفلسفة والقضايا الاجتماعية، كما ظهرت الصحف والمجلات والدوريات والروايات، كما برزت الثورة الصناعية التي تطورت من خلالها الآلات والآلية الصناعية والتكنولوجيا، وبذلك حلّت لغة العقل محل لغة الكنيسة والمعتقدات التقليدية، بينما على المستوى السياسي والاجتماعي فقد كان للثورة الفرنسية الأثر البارز في إعادة هيكلة نظام اجتماعي عقلاني تام، كان له تأثيره البالغ على أفكار المجتمع في أوروبا كلها.

فيما يتعلق بالأنثروبولوجيا، شكّلت كل من كتابات فلاسفة التنوير والفلاسفة الاجتماعيين وأدب الرحلات (كتب الرحالة) مصادر للفكر الأنثروبولوجي خلال هذه المرحلة، حيث تبلورت بعض النظريات لدى الفلاسفة الاجتماعيين تبحث في التاريخ الحضاري للإنسان، تركز على حياة الناس المعيشية ومستوياتهم الحضرية، خاصة في كل من فرنسا وألمانيا وبريطانيا. كما ظهرت محاولات لتحديد الفوارق البيولوجية والسلوكية بين الحيوانات والبشر، والفرق بين الطبيعة والثقافة وبين السلوك الفطري والسلوك المكتسب وبين الجسد الحسي والعقل المدرك، وبرزت تساؤلات شغلت بال المفكرين مثل: **هل الناس في الأصل متشابهين في كل زمان ومكان؟ أم مختلفين من داخلهم؟**. لكن رغم ما أثارته من قضايا هامة تحظى بمكانة هامة ضمن اهتمامات الأنثروبولوجيا، إلا أنها لا تعتبر لحد الآن أنثروبولوجيا وفق مفهومها الصحيح. لأنها تميزت بوصف الشعوب غير الأوروبية على نحو معياري يقوم على أساس التعصب العرقي، وكانت تخلو من المنهج العلمي والاستناد النظري.

في مقابل ذلك، برزت كتابات فلاسفة التنوير أمثال جون جاك روسو؛ مونتسكيو؛ جون لوك؛ دافيد هيوم؛ توماس هوبز وغيرهم. ففي فرنسا برزت كتابات جون جاك روسو ومونتيسكيو، فقد احتلّت كتابات **جان جاك روسو** أهمية كبيرة لدى مؤرخي علم الأنثروبولوجيا، وذلك بالنظر لما تضمنته من مادة إثنوجرافية عن الشعوب المكتشفة (المجتمعات البدائية) ومقارنتها مع المجتمعات الغربية الأوروبية؛ لقد تميزت وجهة النظر الأنثروبولوجية عند روسو بالتجرد والموضوعية واستطاع أن يخلص نفسه من التحيّز الثقافي، حيث تجلّى ذلك في نقد بعض القيم والجوانب الثقافية في مجتمعه الفرنسي، مقابل استحسان بعض الطرائق الحياتية في المجتمعات الأخرى. وفي هذا الإطار، يعد كتابه "**العقد الاجتماعي**" من البواكير الأولى للفكر الأنثروبولوجي.

وكان إلى جانب روسو، البارون **مونتسكيو**، الذي وضع كتاب "**روح القوانين**"

الذي نشر سنة 1748، وأوضح فيه فكرة الترابط الوظيفي بين القوانين والعادات والتقاليد والبيئة. وسادت هذه الفكرة الترابطية في أعمال الأنثروبولوجين في أوائل القرن العشرين، ولا سيما عند الأنثروبولوجيين الإنجليز، حيث انتقل اهتمام مونتسكيو بدراسة النظم السياسية، وتأثير المناخ على نوعية الحضارة أو الثقافة – فيما بعد – إلى الكتابات الأنثروبولوجية، وشكل مجالاً واسعاً للدراسات الأنثروبولوجية. وقدّم مونتسكيو مقارنة بين الثقافات والنظم التشريعية المختلفة والنظم الاجتماعية، حيث رأى أن مواضيع مثل تعدد الزوجات؛ أكل لحوم البشر؛ الوثنية؛ الرق؛ والطقوس الهمجية الأخرى يمكن تفسيرها من خلال الوظائف التي تحققها داخل المجتمع. كما أنه قدّم في كتابه "**رسائل فارسية**" وصفًا للثقافة الفرنسية (التي كان يعيش في كنفها) من خارجها من خلال وصفه لها من وجهة نظر إنسان دخيل لا ينتمي إلى المجتمع الفرنسي. على العموم فقد ساهم الفكر الفرنسي من خلال أعمال روسو ومونتسكيو في دراسة حركة الحضارة والتاريخ وفهمها وتصحيح الكثير من الأفكار الخاطئة التي انتشرت في العصور الوسطى.

أما في ألمانيا، فقدّ تبلور الفكر في عصر التنوير، عن التفوّق العنصري والنزعة القومية الشوفينية (التعصبية)، وظهر ذلك واضحاً في كتابات كل من **جورج هيجل وجوهان فختة**، حيث جعلا الشعب الألماني (الجنس الآري أو الجرماني) الشعب الأمثل والأنقى بين شعوب العالم. أما كتابات **جوهان هيردر** فجاءت لتعزز فكرة التمايز بين السلالات البشرية من ناحية التركيب الجسمي، والتفاوت فيما بينها بمدى التأثّر بمظاهر المدنية، وفي تمثلها لمقومات الحضارة، وعلى هذا الأساس، يذهب **هيردر** إلى أنه ثمة سلالات بشرية خلقت للرقي، وسلالات أخرى محكوم عليها بالتأخر والانحطاط ويجب أن تبقى كذلك لأنها ليست أهلًا للرقي والتقدم.

لكن هذا الاتجاه العنصري في الدراسات الأنثروبولوجية، واجه انتقادات كبيرة في بداية القرن العشرين، حيث برزت فكرة أنه لا يجوز أن تتّخذ اللغة كأساس أو دليل على الانتماء إلى أصل سلالي واحد، وأن العلاقة بين الجنس البشري واللغة، لا يجوز أن تكون أساساً لتقسيم الشعوب الإنسانية إلى سلالات متمايزة، وقد نقض ذلك ودحضه، فيما بعد، الفكر الأنثروبولوجي القائم على المشاهدة الواقعية، والدراسة الميدانية المقارنة لمجتمعات الشعوب الأخرى.

من جانب آخر، كانت أولى المحاولات لتكوين علم أنثروبولوجي على يد الإيطالي **جيامباتيستا فيكو Vico** والذي سمّاه بالعلم الجديد، الذي هو عبارة عن تجميع شامل للإثنوجرافيا وتاريخ الأديان والفلسفة وعلوم الطبيعة. بينما في مجال الأنثروبولوجيا الطبيعية، برزت أعمال الرسام الإيطالي الشهير **ليوناردو دافينشي**، فقد أوضحت لوحاته الفنية التفاصيل الدقيقة لجسم الإنسان والحيوانات، مما أسهم في إثراء دراسات التشريح المقارن ودراسة الخصائص الدقيقة التي تميز الإنسان عن باقي الحيوانات. إضافة إلى أعمال **أندري فيساليوس** الذي اتخذ من شكل الجمجمة كأساس لتصنيف الجماعات البشرية إلى سلالات. دون أن ننسى أعمال كل من **ريتشارد برادلي** و**لينيوس**

اللذان فسرا اختلاف الصفات الشكلية والجسمية للسلالات البشرية في إطار عدة متغيرات مثل المناخ ونظام التغذية وطريقة الحياة وعمليات التهجين عبر الأجيال.

فقد تم استخدام المادة الإثنوجرافية الكبيرة التي تم جمعها خلال عصري النهضة والتنوير في صياغة نظريات وآراء حول طبيعة الاجتماع الإنساني، والمراحل التي مر بها تاريخ البشرية والكشف عن القوانين التي تحكم هذا المسار، والمقارنة بين المجتمعات البدائية ونظيرتها المتمدنة، لقد كانت هذه الحقبة تتميز بالموسوعية، عكس الاتجاه الحديث في الأنثروبولوجيا والعلوم الأخرى الذي يميل نحو التخصص الدقيق.

لقد حملت كتابات فلاسفة التنوير ملامح نظرية للأنثروبولوجيا إضافة إلى المادة الإثنوجرافية والمقارنات بين مختلف الشعوب تميزت بالتجريد والموضوعية، حول العادات والقوانين والتقاليد والبيئة، وكذلك الاهتمام بدراسة النظم السياسية. وهنا يمكن القول: إن الأنثروبولوجيا المتحررة التي ظهرت اتّجاهاتها وقضاياها الانسانية، منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية، تجد – ولا شك– في الكتابات الفرنسية في عصر التنوير، جذوراً أو أصولاً نظرية لمنطلقاتها الفكري. وتأسيساً على ما تقدم، يمكن القول أنّ الفكر الأنثروبولوجي الذي ساد أوروبا في عصر التنوير، وتجلّى في كتابات العديد من الفلاسفة والباحثين والمؤرخين، شكل الملامح النظرية الأولى لعلم الأنثروبولوجيا، الذي بدأ يستقل بذاته مع بدايات القرن العشرين، ويتبلور بمنطلقاته وأهدافه في النصف الثاني من القرن ذاته.

ثانيا. نشأة الأنثروبولوجيا كعلم مستقل (مرحلة التأسيس الأكاديمي):

قسم **توماس بنيمان** تاريخ الأنثروبولوجيا إلى خمس مراحل وفترات رئيسية إذ يعتبر **بنيمان** الأنثروبولوجيا قبل عام 1835 تقريبا قد مرت بمراحل تمهيدية منذ العصور القديمة كما سبق تفصيله في العناصر السابقة، فالأنثروبولوجيا لم تبرز كفرع جديد للمعرفة في نظره إلا من خلال الفترة من عام 1835 حتى 1859، أما خلال الفترة 1859 إلى 1900 أي إبان نصف قرن تقريبا على حد تقسيمه– فقد تأسست الأنثروبولوجيا كعلم أكاديمي، تلي ذلك المرحلة الرابعة مع أوائل القرن العشرين واستمرت حتى منتصف الثلاثينات (1935) وفيها مرت الأنثروبولوجيا بمرحلة التأصيل، أما المرحلة الخامسة التي بدأت منذ عام 1935 حتى نهاية الخمسينات تقريبا فهي ولا شك مرحلة التدعيم والتثبيت لعلم الأنثروبولوجيا وتخصصاته المتعددة.

1. الأنثروبولوجيا خلال القرن التاسع عشر (مرحلة النشأة الأكاديمية):

حيث أصبحت الأنثربولوجيا ذات طابع علمي متميز خلال القرن 19، فمع مطلع هذا القرن اهتم عدد من الباحثين بدراسة الأطلال والبقايا التي وجدوها في مناطق جغرافية مختلفة، قادتهم إلى الإيمان بوجود التنوع البشري بين مختلف الشعوب والمجتمعات، وقد ساعدهم في ذلك تقدم المناهج

والتقنيات في البحوث الجيولوجية والباليونتولوجية، والتي كشفت عن عمر الأرض التقريبي وبرهنت على أنها أقدم بكثير مما كان يُعتقد (حيث تم العثور على أدوات حجرية وأدوات أخرى تعود إلى عشرات الآلاف من السنين).

يرى الباحثون أن القرن التاسع عشر ميلادي هو التاريخ الفعلي لتأسيس علم الإنسان، حيث بدأت الكتب القديمة في الأنثروبولوجيا بالظهور في أوروبا وأمريكا، وكان أبرز تلك الكتب كتاب **هنري ميـــن** "**القانون القديم**" عام 1861 وكتابه عن "**المجتمعات القروية في الشرق والغرب**" عام 1861 وكتاب **باخوفن** عن "**حق الأم**" في عام 1861 وكتاب **فوستل دوكولانج** عن "**المدينة القديمة**" عام 1864 وكتاب **ماكلينان** عن "**الزواج البدائي**" عام 1865.

ولم يمض القرن التاسع عشر حتى تم إعداد مخطط تطوري للجنس البشري، فقد ساهم تطور علوم الطب والبيولوجيا والتكنولوجيا في إرساء قواعد هذا العلم. كما أصبحت الأنثروبولوجيا الثقافية والاجتماعية في منتصف القرن التاسع عشر مجال بحث مستقل خاصة بعد أعمال الأمريكي **لويس هنري مورغان** على هنود شمال أمريكا أو ما يعرف بـ **Les Indians Iroquois** باعتماد البحث الحقلي حيث وضع نظرية عامة حول التطور الثقافي. تلاه فيما بعد البريطاني **ادوارد تايلور** الذي قام ببناء قواعد الأنثروبولوجيا محددا إياها باعتبارها **علم الثقافة**، ويبدو هذا واضحا في كتابه "**الثقافة البدائية**" الذي ظهر عام 1871، وعرف فيه الثقافة على أنها "**ذلك الكل المركب الذي يشمل المعرفة والمعتقدات والفنون والقانون والأخلاق والعادات والعرف وكافة القد ارت والأشياء الأخرى التي تؤدى من جانب الإنسان باعتباره عضوا في المجتمع**"، وضع تايلور بدوره نظرية حول تطور الإنسان تعتمد على أصول الدين، وهذا باستخدام الطريقة المقارنة في استغلال المعطيات الأثنوغرافية.

هذا إضافة إلى أعمال العديد من الأنثروبولوجيين أمثال البريطانيين **هنري لابوك** في كتابه "**أصل الحضارة**" **وماك لينان** في مقاله "**الزواج البدائي**" المنشور سنة 1857؛ وغيرها من الأعمال التي لا يتسع المقام لذكرها وتفصيلها، وعلى العموم؛ ففي هذا القرن أصبحت المجتمعات البدائية مجال البحث الرئيسي في الأنثروبولوجيا "التقليدية" بدلا من تفكير وتأملات الأنثروبولوجيين الأوائل، واستهدف علم الإنسان على أيدي هؤلاء الكشف عن القوانين العامة التي تحكم تطور المجتمعات البشرية. وبما أن الدراسة الميدانية هي أحد الأركان الأساسية للأنثروبولوجيا، فلا يمكن اعتبار القرن التاسع عشر بمثابة فترة النضوج.

- ***الأنثروبولوجيا والدراسات الجيولوجية:***

كان للاكتشافات الجيولوجية ووعلماء الآثار الأثر البالغ في نشأة وتطور الأنثروبولوجيا، حيث شهدت أوروبا خلال النصف الأول من القرن 19 دراسات جيولوجية وتنقيبية مكثفة، عثر من خلالها على بقايا عظمية في الكثير من الأماكن في المناطق الأوروبية، فقد أثبت العالم الفرنسي "**بوشي دي بيرت**" سنة 1830 وجود الإنسان في أوروبا خلال العصر الجليدي، بعد عثوره على

أدوات حجرية في **وادي** "**سوم**"، تلتها العديد من الدراسات التنقيبية التي قدمّت معلومات هامة عن ثقافات العصر الحجري وميّزت لأول مرة بين ثقافات العصر الحجري القديم والعصر الحجري الحديث. كما عُثِر على أول دليل مباشر على وجود الإنسان القديم في ألمانيا سنة 1865، أطلق عليه تسمية إنسان "**نياندرتال**" نسبة إلى القرية التي عُثِر عليه فيها، حيث كانت هذه الاكتشافات والدراسات بمثابة الركيزة التي ارتكز عليها كل من الأنثروبولوجيا وعلم الآثار فيما بعد.

- ***الأنثروبولوجيا التقليدية وعلاقتها بالاستعمار ودراسة المجتمعات البدائية:***

اهتمت الأنثروبولوجيا التقليدية في بداياتها وخاصة في القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين بدراسة المجتمعات التي وصفت بالبدائية لدرجة ارتبطت فيها الأنثروبولوجيا بدراسة هذه المجتمعات وعرفت **بعلم دراسة** "**الآخر**"، حتى أصبح الأمر ميزة وخاصية من خصائص الأنثروبولوجيا التي تميزها عن العلوم الأخرى، ويعود الاهتمام بدراسة هذه المجتمعات لاستخدام الدراسات الأنثروبولوجية من قبل الدول الاستعمارية الأوروبية لإحكام السيطرة على الشعوب البدائية للدول المستعمرة، ولشرعنة استعمار هذه الشعوب والإدعاء بالسعي نحو تطويرها ونقلها من الهمجية والبدائية التي كانت تعشيها إلى التمدن والتحضر، إضافة إلى أن الاهتمام بالمجتمعات البدائية كان نتيجة الاعتقاد بأنها تمثل مرحلة متدنية من مراحل التطور التي تمر بها كل المجتمعات، وأن المجتمعات الغربية قد مرت بهذه المرحلة قديمًا قبل وصولها لمرحلة التحضر والتقدم (تحت تأثير النظرية الداروينية والتطورية التي كانت مهيمنة على الفكر الغربي آنذاك)، وبالتالي فدراسة هذه الشعوب يشكل مجالًا خصبًا لمعرفة تاريخ وماضي الشعوب الأوروبية والشكل الذي كانت عليه سابقًا، فالفكرة التي كانت سائدة آنذاك حول أنه لا يمكن معرفة الحاضر إلا بالرجوع إلى الماضي، إضافة إلى أن صغر حجم تلك الشعوب والمجتمعات وبساطة تكوينها وبنائها الاجتماعي ونظمها السياسية والاقتصادية والدينية، وبدائية أساليب العيش فيها يسهّل عملية دراستها دراسة شاملة وتطبيق قواعد البحث الإثنوجرافي والملاحظة بالمشاركة لاستنباط المعطيات والتعميمات حولها.

كما تزامنت نشأة الأنثروبولوجيا مع الحملات الاستعمارية التي قادتها الكثير من الدول الاستعمارية الأوروبية (مثل بريطانيا وفرنسا وبلجيكا والبرتغال وإيطاليا ..إلخ) نحو الكثير من دول إفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية، حيث تم استخدام الأنثروبولوجيا من أجل دوافع استعمارية من خلال جمع المعلومات المفصلة عن تلك الشعوب وعاداتهم وتقاليدهم والنظم الاجتماعية والدينية والسياسية السائدة عندهم من أجل معرفة نقاط الضعف والقوة لديهم وفهم خصوصياتهم الثقافية والاجتماعية، واستغلال ذلك من أجل إحكام السيطرة عليهم وتسهيل عملية احتلالهم وبقاء الاستعمار لأطول فترة ممكنة، فقد تم تسخير أمهر الإثنوجرافيين والضباط العسكريين للقيام بذلك في دراسات كان ظاهرها علمي وباطنها إديولوجي استعماري، كما تم استغلال هذه الدراسات كذلك في إدارة شؤون المستعمرات، مما ألصق تهمة العلم الاستعماري بالأنثروبولوجيا نتيجة ارتباطها القوي بالحملات الاستعمارية، فقد

اعتبرها الكثير أنه أنشأها الاستعمار وتدرجت في أحضانه، بالنظر إلى ما حملته تلك الدراسات من مادة إثنوجرافية ضخمة عن تلك الشعوب ساهمت بشكل كبير في نشأة هذا العلم وتطوره. كما يتهمها البعض الآخر بالتبرير للفكر الاستعماري من خلال الفكر التطوري الذي كان يصنف تلك الشعوب على أنها همجية ووحشية ومتخلفة، وبالتالي فإن الحملات الاستعمارية هي بمثابة محاولة لنقل الحضارة الغربية إليها وحملها على التطور والرقي.

- ***دور الجمعيات والمجلات العلمية في التأسيس للأنثروبولوجيا:***

كان لكل من الجمعيات والمجلات العلمية دورًا هامًا في بلورة الفكر الأنثروبولوجي ودفعه نحو التخصص المهني والاستقلالية، حيث كانت البداية من خلال الكثير من المنخرطين في جمعيات عامة كانت تضم رجال العلم والفكر والسياسة، قاموا من خلالها بتمويل الكثير من البحوث والدراسات الأكاديمية، لتظهر بعدها الجمعيات الأنثروبولوجية المتخصصة، والبداية كانت في باريس سنة 1800 مع **جمعية ملاحظو الإنسان**، حيث كان أعضاؤها يمولون رحلات خارج أوروبا لدراسة الإنسان والحياة الاجتماعية للشعوب الأخرى، ثم تلتها تأسيس **الجمعية الإثنولوجية** في باريس كذلك سنة 1839، ثم **الجمعية الامريكية الإثنولوجية** سنة 1842، ثم **المعهد الملكي الأنثروبولوجي** في بريطانيا سنة 1843، كذلك **رابطة تقدم العلوم** في كل من بريطانيا سنة 1846 وأمريكا سنة 1852، حيث لعبت دورًا هامًا في عرض القضايا والمسائل الأنثروبولوجية ومناقشتها، وعززت الاتجاه القائل بإمكانية قيام علم مستقل ومتخصص في تلك القضايا. لتعرف بعدها أوروبا موجة كبيرة من تأسيس الجمعيات الإثنولوجية، حيث تم تأسيس ما يزيد عن 40 جمعية عام 1870 في كل من موسكو ومدريد وبرلين وفيينا؛ بحيث ظلت أغلب تلك الجمعيات قائمة إلى غاية عصرنا الراهن.

ومن جهة أخرى، ساهمت المجلات العلمية التي نشأت خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر في كل من أوروبا وأمريكا في زيادة الاهتمام بالمواضيع الأنثروبولوجية والتأسيس لعلم الإنسان كعلم قائم بذاته، نذكر من بين هذه المجلات: **المجلة الألمانية** سنة 1859 اهتمت بالبحوث النفسية والسلالية، **مجلة الأنثروبولوجيا** في فرنسا سنة 1872 اهتمت بالأنثروبولوجيا الطبيعية، **مجلة الحوليات** بفرنسا سنة 1898 أسسها وترأسها دوركايم ثم مارسيل موس بحيث اهتمت بالقضايا الاجتماعية والمواضيع الإثنولوجية، **ومجلة الإنسان** في إنجلترا. إضافة إلى الجرائد اليومية والمجلات الثقافية التي ساهمت في زيادة اهتمام الناس بما يجري من حوار علمي حول قضايا الإنسان وأصله وماضيه والاكتشافات الأثرية، مما خلق جو من الرغبة لمزيد من المعرفة عن تلك الموضوعات، وبذلك ازدادت شعبية الأنثروبولوجيا ومهّد لقبولها كعلم جديد.

- ***دور الحكومات والمتاحف والجامعات في التأسيس للأنثروبولوجيا:***

حيث موّلت الحكومات في الولايات المتحدة وأوروبا بعض المؤسسات البحثية التي قامت بإجراء دراسات إثنوجرافية شاملة واسعة على الهنود الحمر لرسم السياسة الاستيطاني والإدارية بهذه

الشعوب. من جهتها ساهمت المتاحف في تعزيز الاهتمام بالأنثروبولوجيا وثقافات الشعوب المختلفة من خلال عرض الكثير من مخلفات الشعوب المختلفة وآثارهم، إضافة إلى الحفريات البشرية للإنسان القديم، مما يدخل في صلب الأنثروبولوجيا الثقافية والفيزيقية، كما أن اشتغال الكثير من علماء الأنثروبولوجيا في إدارة المتاحف قد سمح لهم بتطوير بعض النظريات الأساسية في الأنثروبولوجيا. ومن خلال الجامعات التي ربطت برامجها بمقتضيات المتاحف، بدأت الأنثروبولوجيا تجد معالم لها ضمن المجال الأكاديمي تدريجيا مع أواخر القرن التاسع عشر، حيث بدأت تلوح معالم الاستقلالية الأكاديمية للأنثروبولوجيا والتخصص المهني، وتوج ذلك بأول **كرسي لأستاذية الأنثروبولوجيا الاجتماعية** الذي كان من نصيب **إدوارد تايلور** بجامعة **أوكسفورد** سنة 1884.

2. الأنثروبولوجيا في القرن العشرين (مرحلة النضج):

بلغت الأنثروبولوجيا مع مطلع هذا القرن مرحلة التخصص والنضج، وذلك نتيجة تلاحم مجموعة من الأحداث والمظاهر التي يمكن تلخيصها في النقاط التالية:

– الفصل الواقع بين الأنثروبولوجيا والإثنولوجيا، مع تراجع الدراسات الحقلية (الميدانية) عن المجتمعات البدائية، أي نقص التركيز على المجتمعات البدائية، والدراسات التي تم إجراؤها أصبحت أكثر نضجا من المراحل السابقة.

– النقلة النوعية التي جاء بها تطبيق العالم البريطاني **هادون** المنهج الإثنوغرافي المتعارف عليه حاليا في دراسته الميدانية، حول منطقة "توريس" في المحيط الهادي (بعثة كامبردج إلى مضايق توريس)، رفقة ثلة من العلماء والأنثروبولوجيين، حيث استغرقت الدراسة عامين (1898–1899)، وبعدها عيّن هادون أستاذًا للأنثروبولوجيا في جامعة كامبردج. وكوّن الكثير من الأنثروبولوجيين برز منهم على سبيل المثال لا الحصر كل من **سلجمان** و**ريفرز** واللذان بدورهما كونا الكثير من الأنثروبولوجيين الأفذاذ في مجال الدراسات الميدانية الحقلية.

– بلوغ عمق وتركيز الدراسات الحقلية إلى الذروة، على يد كل من العلماء **راد كليف براون وبرونسلاو مالينوفسكي وإيفانز بريتشارد**، من خلال تركيزهم على تعلم لغة المجتمعات المدروسة وتطبيق تقنية الملاحظة بالمشاركة (المعايشة)، استطاعوا من خلالها الوصول إلى نتائج أكثر عمقًا وصدقًا وموضوعية؛ ثم شروع مالينوفسكي بداية من سنة 1924 في تدريب مجموعة من الأنثروبولوجيين الأفذاذ في مجال الدراسات الحقلية، مما كان له الأثر البالغ على تطور المنهج العلمي في مجال الأنثربولوجيا.

وبذلك انتقل الاهتمام الأنثروبولوجي مع بداية النصف الثاني من القرن 20، في الدراسات الاجتماعية والثقافية من البحوث التاريخية والتطورية، إلى الدراسات الحقلية والميدانية المتزامنة، وأصبحت بذلك الأنثروبولوجيا علمًا مستقلا قائما بذاته، له مناهجه ومواضيعه وأهدافه، وأخذ في التطور تبعًا للتطور الذي صاحب ما يطلق عليه بالمجتمعات البدائية، وتطور منهج وأدوات البحث

العلمي في العلوم الإنسانية والاجتماعية جمعاء، وانتقل بذلك موضوع الأنثربولوجيا من دراسة الآخر (المجتمعات البدائية) في الأنثربولولوجيا التقليدية، إلى الاهتمام بالمجتمعات المعاصرة (خاصة الأوروبية) في الأنثربولوجيا المعاصرة، مع التركيز على قرى الفلاحين والبيئات الصناعية والمدن والشركات المتعددة الجنسيات في المجتمعات النامية والمتطورة على حد سواء، كما سمح الالتقاء مع التخصصات العلمية الأخرى وتطورها، ببلورة وتنوع فروع الأنثروبولوجيا وتشابكها مع هذه العلوم (خاصة البيولوجيا وعلم الاجتماع)، وتنوع المواضيع التي يهتم بها العلم، واتساع اهتمامه إلى دراسة الحياة الاجتماعية للشعوب المعاصرة والريفية والحضرية.

كما أدى ظهور بعض الدوريات والمجلات المتخصصة التي تناولت موضوعات ذات صبغة أنثروبولوجية، ففي الولايات المتحدة ظهرت مع بداية القرن العشرين: مجلة الجمعية الإثنولوجية الأمريكية ومجلة الأنثروبولوجيا الثقافية عام 1906، والمجلة الدولية لعلم اللغة الامريكية، ومجلة الأركيولوجيا الأمريكية، وفي عام 1941 تم إنشاء مجلة الأنثروبولوجيا التطبيقية، ومجلة الجنوب الغربي للأنثروبولوجيا سنة 1945، ومجلة الأنثروبولوجيا المعاصرة سنة 1960، وغيرها من المجلات التي كان لها الأثر البالغ في توجيه مسارات الدراسات الأنثروبولوجية في الولايات الأمريكية نحو مواضيع مختلفة ومتعددة.

فخلال القرن العشرين ظهرت الأنثروبولوجيا كنظام مهني وعلمي جاد .وتطورت ممارسات البحث الأنثروبولوجي بطرق مختلفة في الولايات المتحدة وأوروبا. وفي ثلاثينيات هذا القرن، اتخذت الأنثروبولوجيا شكلها الحالي كمهنة أكاديمية في الولايات المتحدة تحت تأثير عالم الأنثروبولوجيا فرانز بواس، الذي ساعد على تدريب العديد من أبرز علماء الأنثروبولوجيا الأمريكيين في القرن العشرين، وواصل العديد من طلبته – بمن فيهم ألفريد كروبر وروث بنديكت ومارغريت ميد – إنشاء أقسام للأنثروبولوجيا في الجامعات في جميع أنحاء البلاد.

وخلال النصف الأول من القرن العشرين، أجرى العديد من علماء الأنثروبولوجيا دراسات إثنوغرافية في خدمة الحكومات الاستعمارية. سمحت هذه البحوث للمستعمرين بالتنبؤ بما سيحدث لمجتمع بكامله استجابة لسياسات استعمارية معينة. وخلال تلك الفترة ولاسيما في الستينيات، تم تطوير العديد من الأفكار النظرية في الأنثروبولوجيا مثل البنيوية والمادية الثقافية والبيئة الثقافية. وعلى النقيض، وخلال سبعينيات القرن الماضي، ركز علماء الأنثروبولوجيا على معاني رموز وطقوس ثقافية معينة داخل الثقافات نفسها، وهو نهج يُعرف باسم الأنثروبولوجيا الرمزية.

بذلك يتضح لنا أن الحقول الفرعية للأنثروبولوجيا ظهرت في البداية في المجتمع الغربي في محاولة لفهم الشعوب غير الغربية. وعندما بدأ الأوروبيون استكشاف العالم واستعماره في القرن الخامس عشر، واجهوا شعوباً أصلية في الأمريكتين وأفريقيا والشرق الأوسط وآسيا. ووصف المسافرون الأوروبيون والمسؤولون الحكوميون هذه الثقافات غير الغربية، وقدّموا سجلاً لمظاهرها

الجسدية وعاداتها ومعتقداتها. وبحلول القرن التاسع عشر، تطورت الأنثروبولوجيا إلى التخصص الأساسي لفهم المجتمعات والثقافات غير الغربية، حيث سعى العلماء آنذاك بشكل عام إلى فهم الاختلافات الأساسية والتشابهات بين المجتمعات والثقافات البشرية والتنوع المادي الموجود في الشعوب في جميع أنحاء العالم. وحاليا، لا يركز علماء الأنثروبولوجيا اهتمامهم فقط على الثقافات غير الغربية بل يتعدونها إلى دراسة الممارسات الثقافية في البيئة الحضرية في كل مكان.

إن هذه الرحلة الطويلة في تاريخ الأنثروبولوجيا منذ العصور القديمة إلى غاية القرن العشرين، هي جولة ضرورية في تاريخ العلم، لمعرفة وفهم من أي بدأ هذا العلم وما هي التساؤلات والمواضيع الأولى التي كانت تشغله؟ ثم لمعرفة ما هي أبرز المحطات التاريخية التي ساهمت في نشأة هذا العلم واستقلاليته؟ وغيرها من المعلومات الضرورية التي لا يمكن الاستغناء عنها من أجل فهم الأنثروبولوجيا والأسس التي تقوم عليها. فلا يمكن فهم حاضر العلم بمنأى عن جذوره التاريخية وامتداداته.